موقف الإسلام من العصبية القبلية

بقلم؛ محمد الناصر

كيف عالج الإسلام العصبية القبلية؛ كيف عمل على تذويبها؟ سؤال مهم يطرح نفسه، إذ كيف كان الفرد مشلول الإرادة، مسلوب القوة أمام عبوديته لطغيان القبيلة؟

صحيح أن المرء ما كان يجد الأمن والاستقرار إلا في رحاب القبيلة، فهي البنية الاجتماعية المعتبرة، في صحراء ينعدم فيها النظام والعدل، والسلطة التي تحفظ الأمن.

إلا أن هذا لا يعتبر مبرراً كافياً، ليلغي الفرد عقله ويسير حسب هوى القبيلة، وجبروتها... وقد مر معنا سابقاً قول دريد بن الصمة:

وما أنا إلا من غزية إن غوت　　　غويت وإن ترشد غزية أرشد

وعندما تحدثنا عن الشعر الجاهلي، تبين لنا مدى قوة سيطرة روح القبيلة، فهي المعبود المطاع...

وفي صدر الإسلام كان لروح القبيلة، ومجد الآباء والأجداد تأثير عجيب مما جعل قبيلة قريش وقبائل العرب تقف متجبرة متغطرسة أمام الحق الأبلج.

أ) قوة العصبية وسيطرتها على مجتمع الجاهلية:

ذكر الزهري: أن أبا جهل وجماعة معه وفيهم الأخنس بن شريق، وأبو سفيان، استمعوا قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم في الليل، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: تنتازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا – أو تحاذينا – على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذا؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه[١].

[١] انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣١٥/١.

يستمع هؤلاء النفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال ثلاث ليال – والرسول لا يعلم بهم – ثم يلتقون ويتعاهدون على عدم العودة والاستماع، فالقرآن يستهوي نفوسهم لكن العصبية حملت هؤلاء وأبا جهل خاصة على هذا الموقف المعاند الظالم.

أبو جهل هذا يقتل في بدر، ويصعد فوقه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، ويسأله: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وهل فوق رجل قتله قومه؟ – أي ليس عليه عار، لأن قومه قتلوه! –[٢].

عصبية حتى عند الموت!

وإسلام الحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في السنة السادسة للبعثة كان بسبب نصرة ابن الأخ أولاً، لأن أبا جهل اعتدى عليه.

قال ابن إسحاق[٣]: (مر أبو جهل برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا، فآذاه ونال منه، ورسول الله ساكت، فقام رسول الله ودخل المسجد وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها على الصفا تسمع ما يقول أبو جهل... فأخبرت حمزة ما سمعت من أبي جهل، فغضب ودخل المسجد، وأبو جهل جالس في نادي قومه فقال لهم — الحمزة –: أتشتم ابن أخي وأنا على دينه؛ ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة، فثار رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل: دعوا أبا عُمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، فعلمت قريش أن رسول الله قد عز وامتنع... فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه).

إن قوة تأثير القرابة، وعصبية الدم كانت سبباً في إسلام حمزة رضي الله عنه... وإن حماية أبي طالب لرسول الله، ودعوته بني هاشم وبني المطلب لنصرته عليه الصلاة والسلام كانت من هذا القبيل وحصار بني هاشم مؤمنهم وكافرهم في الشعب "وأن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموهم للقتل"، وقد لبثوا في شعب أبي طالب ثلاث سنين[٤] كان مقاطعة، لأعراف القبائل فيها تأثير كبير.

---

[٢] المصدر السابق ٦٣٥/١.
[٣] المصدر السابق ٢٩٢/١.
[٤] مختصر السيرة النبوية، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ٦٨-٦٩.

إن الإسلام استفاد من رابطة القبيلة في نشر الدعوة، ولا مانع من استخدامها مظلة واقية ضد نيران مجتمع متعصب له تقاليده. وشعر أبي طالب في قصيدته اللامية[٥] يبين مدى حمايته لرسول الله، ومدى قوة رابطة العصبية رغم الخلاف في المعتقد:

ونُسلمه حتى نصرع حوله   نُذهل عن أبنائنا والحلائل
وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه   ربيعُ اليتامى عصمةٌ للأرامل
فوالله لولا أن أجيء بسبة[٦]   تُجَرُّ على أشياخنا في المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة   من الدهر جداً غير قول التهازل

كان من العار عندهم ألا ينصر القريب قريبه، ولو خالفه في المعتقد، ومن هنا وقف أبو طالب من ابن أخيه عليه أفضل الصلاة والسلام هذا الموقف المشرف، فقد كان "لزاماً على العربي أن يقوم بنصرة الأخ وابن العم أخطأوا أم أصابوا، عدلوا أم ظلموا، بمعنى أن الرجل كان يلحقه العار، إذا قعد عن نصرة أخيه أو ابن عمه... ولذلك قالوا؛ انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. وهذا من حكمة الجاهلية... فالنصرة عندهم هي الإعانة على الغير أما في الإسلام فقد اعتبر من ضمن النصرة نصيحة الظالم لرده عن ظلمه..."[٧].

إن الإسلام حرم نصرة الظالم ففي الحديث الشريف: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قيل: يا رسول الله... فكيف أنصره ظالماً؟ قال عليه الصلاة والسلام: تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه)[٨].

لقد نفّر الدين الحنيف من إعانة العشيرة على الباطل، وصور ذلك الفعل القبيح تصويراً مؤثراً، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (مثل الذي يعين عشيرته على غير الحق مثل البعير ردي في بئر فهو يُنْزع بذنبه)[٩].

ب) كيف عمل الإسلام على تذويب العصبية:

[٥] القصيدة: في السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٧٢-٢٨٠ (وفي طبقات فحول الشعراء ص ٢٤٤ جزء ١ البيت الثاني من هذه الأبيات).
[٦] وردت (بسنة) في رواية أخرى.
[٧] تاريخ الإسلام السياسي: ١ / ٦٥ د. حسن إبراهيم حسن.
[٨] حديث متفق عليه.
[٩] مسند الإمام أحمد ١ / ٤٠١ وفي مسند أبي داود: ٧ / ١٧ مختصر المنذري. وقد سكت عنه المنذري.

عرفنا في الفقرة السابقة قوة العصبية في المجتمع الجاهلي وسنرى الآن كيف غير الإسلام هذه الروح، إذ بدأ بغرس ربطة الدين، ووشيجة العقيدة، وهى أساس كل تغيير.

"إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين، ليست وشيجة الدم والنسب، وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة، وليست وشيجة اللون واللغة ولا الجنس والعنصر، ولا الحرفة والطبقة إنها وشيجة العقيدة".

"أما الوشائج الأخرى" فقد توجد ثم تنقطع العلاقة – بين الفرد والفرد... – يبين الله لنوح عليه السلام لماذا لا يكون ابنه من أهله {إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}، فوشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما {فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} إنه ليس من أهلك ولو كان هو ابنك من صلبك"[10].

"وامرأة فرعون التي طلبت من ربها أن ينجيها من فرعون وعمله وأن ينجيها من القوم الظالمين إنها امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية وقفت وحدها في وسط ضغط المجتمع وضغط القصر وضغط الملك وضغط الحاشية ورفعت رأسها للسماء! إنه التجرد الكامل من كل هذه المؤثرات والأواصر"[11].

وفي الحديث الشريف: (من قاتل تحت راية عُمِّيَّة يغضب لعصَبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقُتل فقِتْلةٌ جاهليةٌ)[12]، والعمية هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه.

وقال تعالى: {لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ورَسُولَهُ ولَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}.

قال أهل العلم في سبب نزول هذه الآية: إنها نزلت في أبي عبيدة حين قتل أباه يوم أحد، وفي أبي بكر حين دعا ابنه للمبارزة يوم بدر، وفي عمر حيث قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر، وفي علي وحمزة حين قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر[13].

[10] في ظلال القرآن: ٤ / ١٨٨٦، ٦ / ٣٦٢٢.
[11] في ظلال القرآن: ٤ / ١٨٨٦، ٦ / ٣٦٢٢.
[12] صحيح مسلم بشرح النووي: ١٢ / ٢٣٨.
[13] أسباب النزول للواحدي، ص ٢٣٦، وتفسير ابن كثير (٨ / ٧٩) نقلاً عن كتاب الولاء والبراء ص ٢٢٨.

لقد جمعت هذه العقيدة صهيباً الرومي وبلالاً الحبشي وسلمان الفارسي وأبا بكر العربي القرشي تحت راية واحدة، راية الإسلام، وتوارت العصبية، عصبية القبيلة والجنس والقوم والأرض وهاهو مربي هذه الأمة وقائدها عليه الصلاة والسلام يعلم ويربي إذ يقول لخير القرون كلها مهاجرين وأنصار: (دعوها فإنها منتنة)... وما هي؟ صيحة نادى بها أنصاري: ياللأنصار، وردَّ مهاجري: ياللمهاجرين فسمع ذلك رسول الله وقال: (ما بالُ دعوى جاهلية؟) قالوا: يا رسول الله كسَعَ رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: (دعوها فإنها منتنة)[14].

حقاً إنها منتنة...

وقال صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية)[15].

فانتهى أمر هذا النتن، وماتت نعرة الجنس واختفت لوثة القوم... ومنذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم هو الأرض، وإنما وطنه هو دار الإسلام تلك الدار التي تسيطر عليها عقيدته وتحكم فيها شريعة الله وحدها[16].

روى ابن هشام[17]: (أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال لسعيد ابن العاص – ومر به –: إني أراك كأن في نفسك شيئاً أراك تظن أني قتلت أباك! إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله... ولكنى قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، فأما أبوك فإني مررت به، وهو يبحث بحث الثور بروقه – أي بقرنه – فَحِدْتُ عنه... وقصد له ابن عمه عليٌّ فقتله).

قتل عمر خاله، وقتل على ابن عمه... في سبيل الله، إنه الانتماء إلى مجتمع العقيدة الذي ذابت فيه العصبيات كلها، وانتهت رواسبها في مجتمع الطهر والتجرد...

إذ غزوة بدر قاتل فيها القريب قريبه، ولما خرج للمبارزة في هذه الغزوة بعض الأنصار... نادى منادي قريش: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا... ولما خرج حمزة

[14] صحيح البخاري: ٦٤٨/٤٨، ح ٤٩٠٥.
[15] صحيح مسلم: كتاب الإمارة، ح ٣ / ١٤٧٦، ح ١٨٤٨.
[16] انظر: معالم في الطريق، ص ١٤٣، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٤٢.
[17] السيرة النبوية: ١ / ٦٣٦.

وعلي وعبيدة رضي الله عنهم. قالوا: – أي قريش – نعم أكفاء كرام... وقُتل عندها عتبة وشيبة والوليد من سادة قريش[١٨].

إن هذه الروح الإيمانية، وهذا الانضواء تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، خلَّص المجتمع الجديد من عصبيات قاتلة، بمجرد أن عاشوا حقيقة هذه الشهادة.

وإن الأخوة التي قامت بين المهاجرين والأنصار كانت دليلاً حاسماً على قيام دولة العقيدة ونشوء مجتمع قضى على رواسب العصبية الجاهلية.

وفي خطبة الوداع وضع المصطفى صلى الله عليه وسلم أسس التجمع العقيدي الصحيح إذ قال: (وكل دم في الجاهلية موضوع، وأول دم أضعه؛ دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لم تضلوا كتاب الله... وأنتم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟)، قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت...[١٩].

الشعر الإسلامي:

والشعر الإسلامي ساهم أيضاً في ترسيخ هذا البنيان الضخم، حيث ألغى الإسلام العصبية ورابطة الجنس، وصار الشعر يتمثل هذه القيم الجديدة الكريمة... بعد أن كان سلاحاً يثير أحقاد القبائل.

فالعباس بن مرداس يقاتل بني عمه مخالفاً هواه مطيعاً ربه ودينه حيث يقول[٢٠]:

ويوم حنين حين سارت هوازنٌ ... أمام رسول الله يخفق فوقنا
إلينا وضاقت بالنفوس الأضالع ... لواءٌ كخذروف السحابة لامع

ويقول:

نذود أخانا عن أخينا ولو نرى ... مطالاً لكنا الأقربين نُتابع

[١٨] انظر تفصيل المبارزة في: السيرة النبوية لابن هشام، ١ / ٦٢٥.
[١٩] مختصر السيرة النبوية: الشيخ محمد بن عبد الوهاب: حجة الوداع، ص ١٧٥.
[٢٠] شعر الدعوة الإسلامية، قصيدة (٥٠١): عبد الله الحامد، والسيرة النبوية لابن هشام ٤٦٤/٢ (والمناسبة: أن بني سُليم جاهدوا يوم حنين ومعهم شاعرهم عباس مع المسلمين يقاتلون هوازن وهوازن تجتمع وإياهم في النسب).

ولكن دين الله دينَ محمد رضينا به فيه الهدى والشرائع

القبيلة وحدة اجتماعية يستفاد منها:

كنا قد ذكرنا أن الإسلام استفاد من رابطة القبيلة في نشر الدعوة، واستخدمها مظلة واقية ضد ميزان المجتمع المتعصب... إن الإفادة من الرابطة القبلية وصلة القربى لمصلحة الإسلام شئ، والخضوع لهذه الرابطة المنحرفة الظالمة شئ آخر.

لقد استفاد الإسلام من الطاقات الطيبة كلها بما ينسجم مع تعاليمه، إذ كانت كتائب الجهاد في الفتوحات الإسلامية تضم تكتلات قبلية تثار فيها الحماسة الصادقة، والنخوة العربية خوفاً من العار، إضافة لما جدَّ من استعلاء الإيمان، وعقيدة الجهاد.

"إن قبائل المسلمين كانت تتحرك كوحدات حربية في الميدان... إن ما أذابه الإسلام وقاومه هو العصبية القبلية والتفاخر بالأنساب، ولكنه لم يحارب القبيلة في حد ذاتها، كوحدة لها وجود عميق في البيئة العربية، لقد ظلت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية، والوحدة الحربية المعترف بها في الفتوح الأولى، واستفاد الكيان الإسلامي من هذا الوجود إلى أقصى حد...".

"وفي معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب اختلطت صفوف المسلمين، فصاح بهم خالد بن الوليد؛ أيها الناس تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتى، فتميزت كل قبيلة في صفوفها وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن شماس"[٢١].

قال تعالى: {وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}.

ولو نظرنا إلى منازل القبائل العربية، لوجدناها مطابقة لتعبئة خالد بن الوليد رضي الله عنه عند زحفه من البناج إلى الحيرة...

وفي كتب السيرة والفتوحات نلاحظ أن الخليفتين الراشدين الصديق والفاروق كانا يبعثان القبائل ويستعملان على كل قبيلة قائداً منها...

[٢١] كتاب الطريق إلى المدائن: أحمد عادل كمال، ص ٤٣.

والجدير بالذكر أن المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله كان لهم وضع خاص فلم تكن لهم دائماً في الفتوح وحدات خاصة بهم من قبائلهم، إنما كنا نجدهم في القيادات غالباً كخالد بن الوليد والنعمان بن مقرن وإخوانه[٢٢].

فالعقيدة تذيب العصبية، وتستفيد من رابطة القرابة وتستعلي على المصلحة الشخصية والقبلية، ويكون المسلم ضد هواه، صلته بربه قوية، علاقته مع إخوانه المؤمنين وطيدة... وكلما ضعف رابط العقيدة، وتخلخل صفاء التوحيد، برزت العصبية من جديد، والهوى والنزوات... وسنرى في الصفحات القادمة كيف عادت العصبيات إلى المجتمع الإسلامى بنسب متفاوتة، وخلال القرون المتوالية – نعرضها بإيجاز بإذنه تعالى –

الإسلام والجاهلية
عودة العصبيات من جديد

[٢٢] فتوح البلدان، ص ٣٠٤ نقلاً عن أحمد عادل كمال (الطريق إلى المدائن)، ص ٢٥.

ج) عودة العصبيات من جديد:

تحدثنا فيما مضى عن أثر هذا الدين الحنيف في تذويب العصبيات ورواسبها، وكيف أن أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم سَمَوا بأنفسهم فوق تقاليد الآباء، وأعراف الأجداد.

إلا أننا نلاحظ عودة العصبية، عندما كان وازع العقيدة ضعيفاً... وبذور الإيمان لم تزدهر بعد... والتربية القرآنية لم تلامس بعض القلوب... وذلك في مظاهر متعددة برزت في:

١) حروب الردة.
٢) العصر الأموي.
٣) أحقاد الشعوبية.
٤) عصبية القومية والوطنية في العصر الحديث.

١) حروب الردة:

إن الحديث عن فتنة الردة ليس بالأمر السهل إذا اختلطت فيها المفاهيم، فتلونت العصبية مع ضعف أثر الدين بميل نفوس الأعراب إلى حياة الفوضى والغزو، وحنينهم إلى ماضٍ قريب ألفوه قروناً متطاولة...

لقد كانت النزعات بين المرتدين ليست واحدة، وكانت شعاراتهم متباينة، يجمعها التفاف حول متنبئين كذابين، هم يعلمون كذبهم، إلا أنها عُبِّيَّةُ[٢٣] الجاهلية، وعصبية القبيلة لأحد أبنائها ونتن الوثنية الذي عاد من بعض الوجوه...

"لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عظم الخطب، واشتد الحال، ونجم النفاق في المدينة، وارتد من ارتد من أحياء العرب حول المدينة، وامتنع آخرون عن أداء الزكاة إلى الصديق، ولم يبق للجمعة مقام في بلد سوى مكة والمدينة، وكانت جواثا من البحرين أول قرية أقامت الجمعة بعد رجوع الناس إلى الحق كما في صحيح البخاري عن ابن عباس، وكانت ثقيف بالطائف قد ثبتوا على الإسلام...".

[٢٣] عبية الجاهلية: كِبرها ونخوتها.

"وقد روي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، ومن حديث القاسم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب قاطبة وأشربت النفاق، واللهِ لقد نزل بي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، وصار أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كأنهم معزى مطيرة في حُشٍ في ليلة مطيرة بأرض مسبعة..."[٢٤].

"وقال محمد بن إسحاق: ارتدت العرب عند وفاة رسول الله، ماخلا أهل المسجدين مكة والمدينة، وارتدت أسد وغطفان وعليهم طليحة الأسدي، وارتدت كندة ومن يليها وعليهم الأشعث بن قيس الكندي... وارتدت ربيعة... وكانت حنيفة مقيمة على أمرها مع مسيلمة الكذاب... وارتدت سُليم مع الفجأة، وارتدت بنو تميم مع سجاح الكاهنة..."[٢٥].

اختلاف الشعارات والنزعات بين المرتدين:

"جعلت وفود العرب تقدم المدينة: يقرُّون بالصلاة ويمتنعون عن أداء الزكاة، ومنهم من امتنع عن دفعها للصديق، ومنهم من احتج بقوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِم بِهَا وصَلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ}. قالوا: فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكنٌ لنا"[٢٦].

لقد غاب عن بال هؤلاء؛ أن الزكاة ركن من أركان الإسلام، وعندما عقد الصديق رضي الله عنه لواء الجيش لخالد بن الوليد، أوصاه وبيّن له وضع القبائل، إذ يقول له: (سر في أصحابك على تعبية جيدة، فإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك، وبعضهم لا لك ولا عليك، متربص دائرة السوء، ينظر لمن تكون الدّبرة – أي: النصرة والغلبة – فيميل مع من تكون له الغلبة، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة، فاستعن بالله على قتالهم، فإنه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم)[٢٧].

وقد تكلم الصحابة مع الصديق في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة، ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم... ثم هم بعد ذلك يزكون، فامتنع الصديق من ذلك وأباه...

[٢٤] البداية والنهاية لابن كثير: ٦ / ٣٠٤.
[٢٥] المرجع السابق: ٦ / ٣١٢.
[٢٦] المرجع السابق: ٦ / ٣١١.
[٢٧] الخلافة الراشدة والبطولة الخالدة في حروب الردة، للشهيد المحدث المؤرخ أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الاندلسي (٥٦٥ ٦٣٤ هـ) تحقيق ونشر د. أحمد غنيم (ص ٦٧).

وقد روى الجماعة سوى ابن ماجه عن أبي هريرة: (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لأبي بكر: علام تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها"؟ فقال أبو بكر: والله لو منعوني عناقاً – وفي رواية؛ عقالاً – كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق"[٢٨].

وبعد عودة جيش أسامة بن زيد، عقد أبو بكر الألوية، فعقد أحد عشر لواءً... عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة، فإذا فرغ ساروا إلى مالك بن نويرة إنْ أقام له، ولعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة... إلخ[٢٩].

ولقد عرض الصديق على كبار الصحابة قيادة الجيش فأبوا عليه ذلك وكانوا يطمحون للشهادة...

"دعا أبو بكر زيدَ بن الخطاب لذلك، فقال: يا خليفة رسول الله قد كنت أرجو أن أرزق الشهادة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أرزقها، فأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه، وإن أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه، فدعا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، فقال مثل ما قال زيد، فدعا سالماً مولى أبي حذيفة ليستعمله فأبى عليه، فدعا أبو بكر خالدَ بن الوليد فأمّره على الناس"[٣٠]... واستشهد هؤلاء الصحابة الذين اعتذروا عن القيادة رحمهم الله جميعاً.

بعد هذا العرض السريع لفتنة الردة وانتقاض القبائل على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم... مع اختلاف النزعات والشعارات، نلاحظ أمرين واضحين، هما:

١) قوة العصبية في نفوس الأعراب.

٢) تعالي أصحاب الإيمان على هذه العصبية من الصحابة – وقسم من أهل القبائل – وقفوا لقومهم محاربين مقاتلين كما سنلاحظ ذلك...

[٢٨] البداية والنهاية: ٦ /٣١١، ٣١٥.
[٢٩] البداية والنهاية: ٦ /٣١١، ٣١٥.
[٣٠] حروب الردة: الكلاعى (ص ٥٦ ٥٧).

العصبية راسخة الجذور في الجزيرة العربية:

والمتتبع لحروب الردة، يجد أن سواد الأعراب لم يدخل الإيمان قلوبهم، ولقد وصفهم القرآن بذلك: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ولَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ولَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وإن تُطِيعُوا اللَّهَ ورَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً}.

"هولاء الأعراب وقف معظمهم من الدين الإسلامي بالذهنية المغلقة المتعصبة التي لا تدرك معنى الدين؛ {الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً ونِفَاقاً وأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ}".

"كانوا يعدون الرسول رجلاً أوتي السلطان على العرب؛ فيطيعونه على أنه رئيس مقتدر...".

"وكان العرب المسلمون ينظرون إلى الأعراب المتبدين نظرة حذر وارتياب، وكانوا لا يرتضون لأعرابيٍّ تحضَّر أن يتبدى... وكان للقبيلة الواحدة حاضر وبادية، والتمازج حاصل بين سكنة الحواضر وسكنة البوادي... وكان الرسول الكريم يفرق بين الأعراب الموغلين في الصحراء، والأعراب المقيمين في الضواحي والمستجيبين لدعوة الإسلام..."[٣١].

كان الأعراب بعيدين عن التربية المباشرة، تربية العقيدة والإيمان، كانت فترة الإعداد غير كافية لاقتلاع رواسب الجاهلية الموغلة في نفوسهم. إن جذور العصبية عريقة، والتعلق بعادات الغزو والنهب والفهم لحياة الفوضى، وكرههم للطاعة وحياة الانضباط، كل ذلك مع ضعف العقيدة سبَّب ردةً عنيفة في جزيرة العرب...

وسوف أستعرض بعض المواقف التي تجلّي لنا هذا الأمر:

عندما واجه خالد بن الوليد رضي الله عنه بجيوش المسلمين طليحة الأسدي أُسر حِبال بن أبي حبال، ولما أراد المسلمون أن يبعثوا به إلى أبي بكر الصديق قال: (اضربوا عنقي ولا تُروني محمَّدِيكُم هذا)، فضربوا عنقه[٣٢].

نزل عمرو بن العاص وهو عائد من عُمان على سيد بني عامر – قرة بن هبيرة القشيري – وذلك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال قرة لعمرو: (إن لك عندي نصيحة وأنا أحب أن تسمعها. إن صاحبك قد توفي). قال عمرو: (أو صاحبنا هو،

[٣١] الشعر الجاهلي، د. يحيى الجبوري: ٣٢٣٦.
[٣٢] حروب الردة: الكلاعي، ص ٧٤.

لا أمَّ لك، يعني: دونك؟)، قال له قرة: (وإنكم يا معشر قريش كنتم في حرمكم تأمنون فيه ويأمنكم الناس ثم خرج منكم رجل... فلما بلغنا ذلك لم نكرهه، وقلنا: رجل من مضر يريد يسوق الناس، وقد توفي، والناس إليكم سراع، وإنهم غير معطيكم شيئاً، فالْحقوا بحرمكم تأمنون فيه)[٣٣].

وعندما اقترب عمرو من مشارف المدينة لقيه عيينة بن حصن خارجاً من المدينة، فقال له: (ما وراءك يا عيينة؟)، قال له: (يا عمرو استوينا نحن وأنتم)، فقال له عمرو: (كذبت يا ابن الأخابث من مضر). ثم لحق عيينة بطليحة الأسدي[٣٤].

هذا هو منطق الجاهلية ورجسها، وعقلية مشايخ القبائل، ولننظر في مواقف عجيبة صدرت عن أصحابها خلال حرب اليمامة... مع مسيلمة الكذاب وقومه.

"كان – الرجال بن عُنْفوة – به من الخشوع ولزوم قراءة القرآن والخير شيء عجيب... وفد على رسول الله مع قومه وكان من أكبر من أضل أهل اليمامة حتى اتبعوا مسيلمة، وكان قد أرسله الصديق لأهل اليمامة يدعوهم إلى الله، فارتد مع مسيلمة، وشهد له بالنبوة... سُمع الرجال هذا وهو يقول: كبشان انتطحا، فأحبهما إلينا كبشنا"[٣٥].

ضلال عجيب، وعصبية قاتلة أوردته المهالك.

وها هو مسيلمة يقف مخذولاً أمام كتائب الإيمان ليقول لقومه في حديقة الموت: (اليوم يوم الغيرة... إن هزمتم تستنكح النساء سبيات... فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم)[٣٦].

وبقوة الحسب ومجد العشيرة يستثيرهم محكم بن طفيل أكبر مؤيدي مسيلمة – خذله الله – إذ يقول: (ما كان عندكم من حسب فأخرجوه)[٣٧].

---

[٣٣] حروب الردة. الكلاعي، ص ٨٥ ٨٦.
[٣٤] حروب الردة. الكلاعي، ص ٨٥ ٨٦.
[٣٥] انظر البداية والنهاية، ٦ /٣٢٣، وحروب الردة، ص ١٠٤.
[٣٦] البداية والنهاية، ٦ /٣٢٤.
[٣٧] حروب الردة. الكلاعي، ص ١٤٣و١٤٥.

"قال قائل لمسيلمة: (يا أبا ثمامة أين ماكنت وعدتنا؟) – وذلك بعد أن قتل محكم بن طفيل – قال الكذاب: (أما الدِّين، فلا دين، ولكن قاتلوا عن أحسابكم)، فاستيقن القوم أنهم على غير شيء"[38].

وأخيراً:

أسوق الخبر التالي، وهو يدل على عصبية عجيبة لا تدانيها إلا عصبية ما قبل الإسلام:

"جاء رجل إلى اليمامة وقال: أين مسيلمة؟ دلُّوه عليه، فقال له: من يأتيك؟ قال: رجس. قال: أفي نور أم في ظلمة؟ فقال: في ظلمة، فقال: أشهد أنك كذاب، وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر، واتبعه هذا الأعرابي الجلف – لعنه الله – حتى قتل معه يوم عقربا، لا رحمه الله"[39].

هكذا نلاحظ أن العصبية الجاهلية برزت قوية جائرة، سببت فتنة أريقت لها دماء، وأزهقت فيها أرواح... والإسلام ينادي: (دعوها؛ فإنها منتنة)، على لسان رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام.

ومن مستلزمات الجاهلية، والحياة القبلية كما مر معنا في الشعر الجاهلي؛ حياة الغزو، وأحياناً على بكر أخينا، وهذه النفسية ظهرت خلال فتنة الردة واضحة.

قدم عيينة بن حصن والأقرع بن حابس على الصديق يطلبان جعلاً ليخذلان من وراءهما من القبائل، فرفض الصديق ذلك، وبعد عودتهما شن خارجة بن حصن – أخو عيينة – غارة على المدينة المنورة، فخرج إليهم الصديق بمن معه من المسلمين وهزمهم في ذي القصة[40].

وهذا الفجاءة من بني سليم كان قدم على الصديق وزعم أنه أسلم، وسأله أن يجهز معه جيشاً يقاتل به أهل الردة فجهز معه جيشاً، فلما سار جعل لا يمر بمسلم ولا مرتد إلا قتله وأخذ ماله... فلما سمع الصديق بعث وراءه جيشاً فرده وقد جمعت يداه إلى قفاه وقُتل.

[38] حروب الردة. الكلاعي، ص ١٤٣و١٤٥.
[39] البداية والنهاية ٦ / ٣٢٧، ٣١٣، ٣١٩. وحروب الردة: ص ٥٣، ٤٥ و٣٩ و٤٠
[40] البداية والنهاية ٦ / ٣٢٧، ٣١٣، ٣١٩. وحروب الردة: ص ٥٣، ٤٥ و٣٩ و٤٠

من شحّت نفوسهم بدفع الزكاة:

وهنالك بعض المرتدين امتنعوا عن دفع المال وتأدية الزكاة لخليفة رسول الله...

قال الأشعث بن قيس لأبي بكر الصديق: (والله ما كفرت بعد إسلامي، ولكني شححت على مالي)، وذلك عندما جئ به وبقومه من أسرى كندة بعد هزيمتهم... وقال وفد كندة أيضاً نفس القول: (والله ما رجعنا عن الإسلام، ولكنا شححنا على أموالنا)[٤١].

"وكان الذين حبسوا صدقات قومهم وفرقوها بينهم مالك بن نويرة، وتيس بن عاصم، والأقرع بن حابس التميمي، وكذلك فعل حذيفة بن بدر الفزاري، ومثله بنو سليم، وحاولت طيء أن تقلد جيرانهم بني أسد إلا أن عدي بن حاتم رفض ذلك وأقنع قومه، وقدم بالصدقات على أبي بكر الصديق رضي الله عنه"[٤٢].

الغزو وحياة الفوضى:

وهكذا نلاحظ أن العرب الذين كانوا يأنفون من الانصياع إلى سلطة واحدة، صعُب عليهم أن يخضعوا لرجل من قريش يؤدون إليه أموالهم. وهذا شاعر كندة حارثة بن سُراقة يقول:

أطعنا رسول الله ما كان وسطنا فيا قوم ما شأني وشأن أبي بكر؟
أيورثنا بكراً إذا مات بعده فتلك إذن والله قاصمة الظهر[٤٣]

جاءت سجاح بمن معها من قبيلتها "تغلب" من الجزيرة وقد ادعت النبوة، وهي من نصارى العرب، ولما مرت ببلاد بني تميم دعتهم إلى أمرها، فاستجاب لها عامتهم، وكان ممن استجاب لها مالك بن نويرة التميمي، وعطارد بن حاجب... ثم اتفق أتباعها على قتال الناس فقالت لهم فيما تسجعه: (أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب)، ثم قصدت اليمامة لتأخذها من مسيلمة.

---

[٤١] انظر حروب الردة: الكلاعي، ص ٤٤/٣٢٨ – ٢٢٦/٥٠

[٤٢] انظر حروب الردة. الكلاعي، ص ٢٣٨/ ٤٤، ٢٢٦/٥٠. وانظر رواية ابن كثير للأبيات ٣١٣/٦ ففيها بعض الاختلاف.

[٤٣] انظر حروب الردة. الكلاعي، ص ٤٤/٢٣٨، ٢٢٦/٥٠. وانظر رواية ابن كثير للأبيات ٣١٣/٦ ففيها بعض الاختلاف.

واتفق الكذّابان؛ "وتزوجها مسيلمة وأقامت عنده ثلاثة أيام، ثم رجعت إلى قومها... وقد نادى مؤذّنها: إن مسيلمة قد وضع عنكم صلاتين مما آتاكم به محمد – يعني؛ صلاة الفجر وصلاة العشاء -... ثم انثنت راجعة إلى بلادها الجزيرة وأقامت في قومها بني تغلب..."[٤٤].

إغارة ونهب وفوضى... وحنين إلى مظاهر الجاهلية تلك، ولقد قال أحد أتباعها – عطاء بن حاجب – بعد أن رجع إلى الإسلام في سجاح[٤٥]:

أضحتْ نبيتنا أنثى نطيف بها   وأصبحت أنبياء الناس ذُكراناً
فلعنة الله رب الناس كلهم   على سجاح ومن بالكفر أغْوانا

دعاة كذبة، ما كان يمكن أن يصدقوا لو كانت روابط الإيمان قوية، وجذور الدين راسخة.

حفظة القرآن، وأصحاب الإيمان:

هؤلاء الأتقياء الأبرار، هم الذين حسموا الموقف في هذه الفتنة، وارتفعوا فوق التقاليد والأهواء، فقد حاربوا قومهم وقبائلهم مع كتائب الإيمان...

ولقد استمر القتل في الصفوف من حفظة القرآن في اليمامة، "وجعل منادي المسلمين، ينادي: يا أهل القرآن فيجيبون المنادي فرادى ومثنى، فاستمر بهم القتل؛ فرحم الله تلك الوجوه"[٤٦]، كما روي عن عمر رضي الله عنه وهو يذكر تلك الأيام.

"وصبر الصحابة في هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم... وكان جملة من قتلوا في حديقة الموت وفي المعركة قريباً من عشرة آلاف مقاتل، وقيل: أحد وعشرون ألفاً – من المرتدين – ومن المسلمين استشهد ستمائة، وقيل: خمسمائة، فالله أعلم، وفيهم من سادات الصحابة أمثال ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري الخزرجي، ومنهم زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب لأبيه، ومنهم أبو

[٤٤] البداية والنهاية ٣٢٠٣٢١/٦٠.
[٤٥] الإصابة لابن حجر: ٢ /٤٧٧.
[٤٦] انظر حروب الردة للكلاعي، ص ١٧٧.

دجانة، ومنهم عباد بن بشر الأنصاري، وأبو حذيفة بن عتبة ومولاه سالم..."[47] رحمهم الله أجمعين.

كانت المعارك ضارية، حتى أن المسلمين تراجعوا عدة مرات أمام بني حنيفة، إذ جاء الخلل إلى الصفوف من الأعراب، وعندها صاح أحد أصحاب رسول الله – ثابت بن قيس – رضي الله عنه : أخلفنا يا خالد... فقال: ذلك إليك، فنادِ في أصحابك، فأخذ الراية ونادى: ياللأنصار... فتسللت إليه رجلاً رجلاً... أربعمائة رجل لا يخالطهم أحد... ونادى خالد: ياللمهاجرين... فأحدقوا به، ونادى عدي ومكنف بن زيد الخيل الطائي لطيءٍ؛ فثابت إليهما طيءٌ وكانوا أهل بلاء حسن، وعزلت الأعراب ناحية...

ويكمل الرواية رافع بن خديج فيقول: (وإنما كنا نؤتى من قبل الأعراب... وأجهضهم أهل السوابق والبصائر، فهُم في نحورهم...)[48].

إن العقائد تقاس بالابتلاء والشدائد، وعامة الناس لا يجدون نفعاً في هذه المواطن، وما أجدر الدعاة أن يستفيدوا من مثل هذه الدروس... أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل السوابق على قلة عددهم هم الذين قلبوا ميزان المعركة... وكثرة الأعراب من المسلمين سرعان ما كانوا يتراجعون عندما تعضهم السيوف.

لقد وقف عدي من قومه موقفاً صلباً مؤمناً، وحارب إلى جانب خالد بن الوليد، ولقد قاتل المسلمون من بني سليم المشركين من قومهم، فانهزم الأعراب من المرتدين – من بنى عبس وذبيان ومَنْ معهم من مدد طليحة لهم بابنه حِبال – الذين أغاروا على المدينة، وقتل حبال، وكان أول الفتح، وذل بهذه الموقعة المشركون، وعز المسلمون، عندها وثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم، وفعل من وراءهم كفعلهم، فحلف أبو بكر ليقتلن من كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة... وجعل خالد رضي الله عنه بعد أن هزم طليحة وأسداً يتردد شهراً يأخذ بثأر من قتلوا من المسلمين الذين كانوا بين أظهُرهم حين ارتدوا..."[49].

[47] انظر البداية والنهاية، ٦ / ٣٢٥ وما بعدها.
[48] انظر حروب الردة ١٣٣١٣٨، والبداية والنهاية: ٦ /٣٢٤.
[49] البداية والنهاية ٦ /٣١٣، ٣١٩.

وكان ابن عمرو اليشكري من أشراف اليمامة، وكان مسلماً يكتم إسلامه، وكان صديقاً للرّجال، فقال شعراً، فشا في اليمامة منه هذه الأبيات[50]:

يا سعاد الفؤاد بنت أثال ... طال ليل بفتنة الرّجَال
فتن القوم بالشهادة[51] والله ... عزيز ذو قوة ومحال
إن ديني دين النبي وفي القوم ... رجال على الهدى أمثالي[52]
أهلك القوم محكم بن طفيل ... ورجال ليسوا لنا برجال[53]
قلت للنفس إذ تعاظمها الصبرُ ... وساءت مقالةُ الأقوال
إن تكن ميتتي على فطرة الله ... حنيفاً فإنني لا أبالي

فبلغ ذلك مسيلمة ومحكماً وأشراف أهل اليمامة، فطلبوه، ففاتهم ولحق بخالد بن الوليد، فأخبره بحال أهل اليمامة ودلّه على عوراتهم.

إنه الإيمان يستعلي في نفس ابن عمرو اليشكري، جعله يضحِّي بقومه في سبيل دينه.

دروس وعبر:

هذه هي حروب الردة، فتنة عمياء، وعصبية هوجاء، إلا أنها لا تخلو من عبر وعظات...

١) العصبية خطيرة خبيثة من فتن الجاهلية، تتلون وتخدع أصحابها، فلا يرون الحق، ويدافعون عن الباطل، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً.

٢) التعلق بالمال والمتاع الزائل، مع ضعف الإيمان وغبش التصور أودى ببعض المرتدين المهالك، فشحت نفوسهم عن دفع الزكاة.

٣) إن قوة الإيمان، وفهم العقيدة، من هدي الإسلام... الذي يصنع العجائب... وهذا ما ظهر في موقف الصدِّيق وصموده، وعدم تهاونه في أداء الزكاة، ولقد قرر بحزم أن

[50] حروب الردة: الكلاعي، ص ١٠٥ ١٠٦.
[51] كان قد شهد – الرجال – لمسيلمة بالنبوة... ففتن الناس.
[52] لم يصرح باسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما يعرض بأن لا نبي سواه وأن مسيلمة مفتر على الله.
[53] محكم بن طفيل من أكبر أعوان مسيلمة.

يحارب المرتدين، وأن يرسل جيش أسامة ابن زيد إلى تُخُوم البلقاء والشام، "واللهِ لا أحل عقدةً عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين؛ لأجهزنَّ جيش أسامة...".

وظهرت مواقف حفظة القرآن وأصحاب الإيمان عظيمة غيَّرت مجرى التاريخ...

٤) إن مهادنة المشركين باسم المصلحة وضعف الإمكانيات ليس له ما يبرره، وواقع الصديق وما كان فيه هو وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين من ضيق وشدة، وانتقاض العرب، ما جعله يتنازل عن حق من حقوق الله، ولا أن يسالم أو يساوم في دين الله.

إن مواقف الصحابة تنفي علينا في هذا الزمن كل التواءٍ وخداعٍ، وجرأةٍ على الفتوى باسم الدين.

٥) إن العودة إلى التربية الصافية، إيمانية خالصة ضرورة ملحة، وفرض محتم، ينقذ المسلمين مما هم فيه من تسيب وضياع وانهزام.

٦) إن القلة المؤمنة هي رصيد الشدائد، وعماد كل نهضة جادة وصحوة يقظة، مادامت "هذه النخبة" متمسكة بكتاب الله وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم – كما فهمها سلف هذه الأمة.

٧) وصورة الردة تتمثل بإيجاز في: "أن العرب افترقت في ردتها؛

– فطائفة رجعت إلى عبادة الأصنام وقالوا: لو كان نبياً لما مات.

– وفرقة قالت: نؤمن بالله ولا نصلي.

– وطائفة أقروا بالإسلام وصلُّوا، ولكن منعوا الزكاة.

– وطائفة شهدوا؛ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولكن صدَّقوا مسيلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم أشركه معه في النبوة...

ولم يشكّ أحدٌ من الصحابة في كفر من ذكرنا ووجوب قتالهم إلا مانع الزكاة... ثم زالت الشبهة عن الصحابة رضي الله عنهم وعرفوا وجوب قتالهم؛ فقاتلوهم"[٥٤].

وها نحن في هذا العصر نرى مَنْ ينكر الزكاة، ويجحد أركان الإسلام، ويتفلت من تحكيم شرع الله، ثم يزعم أنه مسلم، ويجد من يفتي له بإسلامه، مادام يتلفظ بالشهادتين، ولو لم يأت بأي عمل من أعمال الإسلام، فأي عجب أكثر من هذا؟!

---

[٥٤] مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ٢٩، ٣٠.